انعكاسات السياسة الثقافية الفرنسية على المنظومة الثقافية والاجتماعية الجزائرية 1880 - 1962.

Reflections cultural policy French On the Algerian cultural and social system 1880-1962.

حاج سعيد محمد*، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر1 (الجزائر)

Hadjm229@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/10/03 تاريخ القبول: 2022/12/28 تاريخ النشر:2022/12/31

ملخص:

يتناول هذا المقال بالدراسة والتحليل تلك الآثار السلبية الناتجة عن السياسة الثقافية التي مارسها الاحتلال الفرنسي في الجزائر طيلة 132 سنة في إطار مشروع الفرنسة الشامل للجزائريين ومحاربة الثقافة المحلية وتفكيك رموزها وتكريس ثقافة المستعمر، وبيان مظاهر تلك التأثيرات على المنظومة الثقافية والاجتماعية للشعب الجزائري أثناء الاحتلال خاصة ما يتعلق باللغة والقيم والأخلاق وما يتبعها من طرق التفكير والعيش والعادات والتقاليد. لقد أسفرت السياسة الثقافية التي انتهجها الاحتلال الفرنسي عن نتائج وخيمة وآثار مدمرة ببنية المجتمع الجزائري الثقافية وعرقلت تطوره التاريخي، وأدخلت عليه جملة من التغييرات الثقافية والفكرية. صحيح أن الشعب الجزائري جابه الاحتلال الفرنسي وسياسته الثقافية بوسائله الخاصة إلى أن الحقيقة والواقع يبينان أن ثمت نتائج سلبية بدأت بوادرها تظهر على المجتمع الجزائري، وهي مظاهر دخلية وغريبة أخذت تنتشر شيئا فشيئا لكن بدرجات متفاوتة عبر مختلف مناطق القطر الجزائري خاصة تلك التي كانت أكثر احتكاكا بالمستوطنين الأوربيين.

كلمات مفتاحية: السياسة الثقافية؛ التأثيرات؛ التقليد؛ الآفات؛ النخبة.

---

*- المؤلف المرسل

Abstract:

This article deals with the study and analysis of those negative effects resulting from the cultural policy practiced by the French occupation in Algeria for 132 years within the framework of the comprehensive French project for the Algerians, fighting the local culture, dismantling its symbols, dedicating the culture of the colonizer, and clarifying the manifestations cultural and social system of the Algerian people during the occupation, especially with regard to language, values, morals and the ways of thinking and living that follow, customs and traditions. The cultural policy pursued by the French occupation resulted in disastrous results and devastating effects on the cultural structure of Algerian society and hindered its historical development, and brought about a number of cultural and intellectual changes to it. It is true that the Algerian people confronted the French occupation and its cultural policy with their own means, to the fact that the truth and reality show that there are negative consequences that have begun to appear on Algerian society, and these are internal and strange manifestations that spread little by little, but to varying degrees across the various regions of the Algerian country, especially those that were more in contact with settlers Europeans.

Keywords: Cultural Policy; Effects; Tradition; Elets; Elite.

- **مقدمة:**

حاولت فرنسا أن تستغل الأداة الثقافية لخدمة مصالحها الاستعمارية وذلك بإدارة سياسة ثقافية للتعامل مع المستعمرة، وحتى إن قدر للجزائر الحصول على الاستقلال السياسي إلا أن الثقافة الفرنسية تبقى دوما متجذرة في نفوس الجزائريين وهذا ما يمنح فرنسا عدة مزايا قد تستمر حتى بعد الاستقلال.

سعت فرنسا لغرس بذور الفكر الفرنسي والثقافة الفرنسية الغربية في عقول الجزائريين، وفرض لغة هذه الثقافة في هذه البلاد ليمتد وجودها الثقافي واللغوي في هذه المنطقة، لذلك تبنت الإدارة الفرنسية استراتيجية تدميرية للقضاء على مكونات الهوية الثقافية الجزائرية، وذلك بمحو

خصائصها ومسخ مميزاتها من دين ولغة وتاريخ وأعراف، لبسط الهيمنة التامة على المجتمع الجزائري وتغيير البيئة الجزائرية التقليدية الأصيلة وتحويلها إلى بيئة غربية فرنسية، لتصنع على أرض الجزائر وجودا فرنسيا لغة ودينا وأخلاقا وعادات وتقاليد، وتجعل الشعب الجزائري شعبا مغايرا لحقيقته منسلخا من شخصيته راضيا بالتبعية لغيره قابلا للاندماج في الحياة الفرنسية. وكان من الطبيعي أن ينتج عن ذلك انعكاسات سلبية متعددة في المجال الثقافي والاجتماعي. وعليه فما مدى تأثير السياسة الاستعمارية الثقافية على المنظومة الثقافية والفكرية للشعب الجزائري أثناء الاحتلال؟ وما أهم الآثار والمظاهر السلبية التي انعكست على المقومات الثقافية الجزائرية؟

1. حالة الثقافة في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين:

قبل الحديث عن حالة الثقافة في هذه الفترة لا بد أن نشير إلى أهم العوامل التي ساهمت في تأثر الوضع الثقافي في الجزائر، والتي أدت إلى انكماش الثقافة المحلية وترك المجال للثقافة الغربية الدخيلة التي بدأت تطغى على مختلف مناحي الحياة. ويمكن أن نجمل أهم هذه العوامل فيما يلي:

. السياسة الثقافية التي تبنتها سلطات الاحتلال الفرنسي، والتي ترمي إلى تجفيف منابع الثقافة المحلية وعرقلت تطورها، وفرض الثقافة الدخيلة الغربية بشتى الطرق والوسائل.

. الحركة الاستيطانية وتوطين الأوربيين في الجزائر وما صحبه من نشر ثقافة دخيلة ومفروضة على المجتمع الجزائري.

. فرض التعليم الفرنسي ونشر الثقافة الفرنسية في المدارس وتعلم الجزائريين للغة الفرنسية، لذلك نجد أن أكثر من تعلق بالثقافة الغربية الطبقة المتعلمة، والعائلات المشاركة في الحكم.

. الهجرة إلى أوربا وخاصة فرنسا فأولئك المهاجرون انبهروا بنمط الحياة الغربية وكانوا أكثر احتكاكا بالأوروبيين، وعندما عادوا إلى وطنهم جلبوا معهم عادات وسلوكيات جديدة غريبة عن المجتمع الجزائري.

بدأت الحياة الثقافية في الجزائر تدريجيا بالتغير نتيجة العوامل الآنفة الذكر، وقد أثار هذا التغير انتباه وأسى كثير من الأعلام الذين زاروا الجزائر أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كالرحالة التونسي "محمد بيرم الخامس" الذي زارها سنة 1878 وحز في نفسه فشو انسلاخ كثير من المسلمين عن أصولهم، وغشيانهم الفسوق وقبائح الكلام، وزواجهم العشوائي المختلط من غير نظر لديانة، وفرار بنات مسلمات من آبائهن إلى رجال من الإفرنج وغيرهم ويصاحبنهم بدون زواج أوبه ولا مانع عندهم[1]. وأشار إلى مدى التأثير الفرنسي في عادات الجزائريين أثناء زيارته للجزائر، وحسب قوله

[1] محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، ج4، دار صادر، بيروت، د.ت، ص15.

فإن أغلب عوائد الأهالي وصفتهم في الجزائر هي مثل ما في أهالي تونس في السلام والحياء، غير أن الجيل الجديد في المدن تخلق بأخلاق مخضرمة بين العادات الأصيلة وبين عوائد الفرنسيين، ومن المعلوم أن النفس مائلة للتشبه غير أنها أول ما ترى إليها الأخلاق الشريرة. ثم روى كدليل على تغير عوائد الجزائريين قصة لثلاثة أطفال صغار دون سن البلوغ من أبناء أحد حكام قالمة كانوا يتعلمون الفنون في مكتب بلاد الجزائر سافروا معه بصحبة أمهم في الباخرة من الجزائر إلى عنابة، قاموا بشرب الخمر أمام الملأ ولم ينكر عليهم أحد، ثم تأسف عن حال المسلمين الذين خرجوا عن طورهم وفسدت أخلاقهم وأفسدوا أخلاق غيرهم، فإذا كان أبناء حكام البلاد على هذا النحو فما بالك بغيرهم، وكان منشأ هذه الآفات حسب ((محمد بيرم)) أن الفرنسيين أطلقوا الحرية الشخصية للأهالي بعدما حرموهم من الحرية السياسية، فانبعثت القوات كلها إلى الأولى مع ملائمة الطباع النفسانية. ومع هذا اعترف ((محمد بيرم)) ببقاء مكارم الأخلاق الإسلامية والطباع العربية في المجتمع الجزائري خاصة من ذوي البيوتات وأصحاب الأصول وإن كانوا قليلين بالمدن. أما أهالي القبائل والبوادي فالأكثر منهم حافظ على الطبائع والعادات الأصيلة[1].

بدأ الطابع الفرنسي يطغى على نواحي مختلفة من حياة الجزائريين، ومن جهة أخرى بدأت ملامح الطابع الإسلامي تزول تدريجيا خاصة في المدن، وهذا ما جعل ((مالك بن نبي)) يظن سنة 1932 أن لافتة نادي الترقي بالجزائر العاصمة اللافتة الوحيدة المكتوبة بالخط العربي أنذاك[2]. وذكر ((ابن نبي)) أن المجتمع فقد حاسة العلو فأصبحت هذه الحاسة على حد تعبيره أفقية زاحفة راقدة[3]. وذكر بعضهم أن المجتمع الجزائري قد آل أمره في سنة 1920 إلى الانحطاط التام[4]. وشهدت كثير من المدن الجزائرية حالة من المسخ الحضاري، والذي بدأ يظهر جليا في المدن الكبيرة، وأصبحت العاصمة نموذجا حيا للتغريب الثقافي، ففي سنة 1932 وجد ((مالك بن نبي)) وجه العاصمة قد تغير وهو أحد الشهود العيان الذين زاروا مدينة الجزائر، ووصف الهجين اللغوي الذي أصاب سكان المنطقة، حيث لم يكن الجزائري يشعر في العاصمة عند الوصول إليها أنه في منزله وعقر بيته؛ إذ كان القوم يتكلمون فيها لغة هجينة من مفردات عربية وإسبانية وفرنسية، أما في الأحياء الأخرى فيتكلمون اللغة الفرنسية[5]. وفي سنة 1935 قام ((محمد ابراهيم الكتاني)) المغربي بوصف حالة الثقافة في الجزائر عند زيارته لحضور

---

[1] محمد بيرم الخامس، المصدر السابق، ص ص15-16.

[2] مالك بن نبي، **مذكرات شاهد قرن**، دار الفكر، ط2، الجزائر، 1984، ص256.

[3] مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، 2000، ص76.

[4] مصطفى الأشرف، **الجزائر الأمة والمجتمع**، ت: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، 2007، ص248.

[5] مالك بن نبي، المرجع السابق، ص255.

مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الخامس وشاهد عن تعاسة المسلمين ودينهم ولغتهم ما لم يكن يتصور أن الحالة وصلت إلى معشاره، وذلك للجهل الفظيع باللغة بالعربية، والطمس الشنيع لمعالم الدين، ثم أقسم بالله الذي لا إله إلا هو أنه قد بكى حالة الجزائر مرارا أثناء الأيام الأربعة التي قضاها بها قبل ذلك المؤتمر، وكثيرا ما كان يختلج في ذهنه أن إحياء الأمة ضرب من العبث ومحاولة لمستحيل[1]. وكان للعامل المادي الاقتصادي أثرا بارزا في الحياة العلمية والثقافية، فالجزائري الذي كان يعاني الفقر بدل من أن يبحث عن وسائل التثقيف والمعرفة، يجد نفسه بشعور أو بدون شعور يلهث بحثا على ما يسد رمقه هو وعائلته، وذلك ما يصرفه عن تثقيف نفسه ويجعله يتخبط في ظلمات الجهل.

وبخصوص التعليم فقد دق العلماء والمصلحون والزعماء ناقوس الخطر نظرا لحرمان الجزائريين منه، وعبر الزعيم المصري ((محمد فريد)) بمناسبة زيارته للجزائر سنة 1901 عن الواقع المزري الذي أضحى عليه المجتمع الجزائري بقوله: <<إن حالة التعليم في الجزائر سيئة جدا، ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع المعاملات، بل ربما تندرس العربية بالمرة مع مضي الزمن... وأصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران، قسنطينة، عنابة وغيرها[2]>>. وبالغت السلطات الفرنسية في منع التعليم حتى في المنازل وذكر ((يحي بوعزيز)) أن الشرطة الفرنسية قد داهمت منزل عائلته في مدينة برج بوعريريج ستة 1938 للبحث عن سبورة اشتراها والده ليعلمه بعض قواعد اللغة العربية، وهذه الحادثة صورة مصغرة ومعبرة على الأسلوب الذي كان يتبعه الاستعمار الفرنسي في تجهيل الجزائريين ومحاربة لغتهم[3].

وإذا ألقينا نظرة خاطفة عن الحركة الأدبية فإننا نلاحظ أنها عرفت وجها مغايرا لما كانت عليه قبل الاحتلال، وأصاب الأدب العربي أيام الاحتلال جمود رهيب وانفصام عن العصر وعن الحياة الفكرية والحضارية، وكادت منابعه أن تنضب من البلاد لولا رحمة الله بالعباد[4]. إن الأدب لا يمكن أن ينمو ويزدهر في مثل تلك الظروف القاسية في ظل الاحتلال الفرنسي الذي راح يجفف منابع العلم والمعرفة، ونتيجة لذلك عاش الأدب في نطاق محدود جدا، وبملامح باهتة، وانحسرت موجته، وانكمش مفهومه،

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، **سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين السنوي الخامس**، دار الكتب، الجزائر، 1982، ص271.

[2] أحمد الخطيب، **جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985،ص64.

[3] يحي بوعزيز، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830 . 1954**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص62.

[4] محمد مهداوي، **الإبراهيمي نضاله أدبه**، دار الفكر، ط1، دمشق، 1988، ص26.

وانطمست معالم الحيوية فيه، ففي الشعر مثلا لم تبق له إلا أجراس التفعيلة المقفاة في المنظومة المديحية، بل تلوح لنا بعض الفترات مجدبة من أي نص له لحمة بالأدب، فما بالك بالمضمون[1]. وقد أكد هذه الحقيقة الشيخ "البشير الإبراهيمي" في سياق حديثه عن وجهة نظره في أشعار فترة الاحتلال، وقد اطلع على أكثرها فإذا هي لون واحد، وإذا هي مصروفة في الغالب إلى مدح المشايخ والكبراء، وإذا هي أخت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق، لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه وأضربه، ومنقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها ومعانيها، ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرفه وانتزاعه، بل حكم رحمه الله بأن في الشعر الملحون ما هو شعر على الحقيقة، فقد سمع من شعر القرن الماضي . أي القرن 19 . ما يفيض بالحكمة ويحث على الفضائل والكمالات ويخوف من الله والآخرة[2].

ولا بد من التنبيه هنا أن الحركة الأدبية والثقافية في فترة الاحتلال لم تكن تواجه غيابا كليا، وذلك بفضل العلماء والمؤلفين وبعض الأدباء الذين ساهموا في المحافظة على التراث واللغة العربية[3]. ومع بداية القرن العشرين أخذت تلوح في الأفق بوادر النهضة الأدبية، تمثلت في جهود بعض الرواد الإصلاحيين الذين تأثروا بالنهضة المشرقية الإصلاحية والوطنية، بواسطة بعض الجرائد الشهيرة كجريدة (المنار) لرشيد رضا و(اللواء) لمصطفى كامل. وتمثلت نهضتهم في بروز عدد من المؤلفات والمقالات والقصائد ساعدتهم على نشرها بعض الصحف الرائدة. والواقع أن الدارس لهذا الإنتاج بعامة يلاحظ فيه نوعا من التطور أقل ما يقال عنه أنه أعاد الثقة في نفوس الجزائريين بأن هناك نهضة أدبية تحاول البروز إلى الحياة الاجتماعية وتوجيه الفرد الجزائري توجيها وطنيا يعتز معه بلغته ودينه.

2. مظاهر التغيرات الثقافية والاجتماعية:

1.2انتشار الآفات وتبدل الأخلاق:

المجتمع الجزائري في الأصل مجتمع محافظ معروف بصفاته الحميدة وأخلاقه الكريمة، وقد وصف "حمدان خوجة" الجزائريين بأحسن الأوصاف في كتابه (المرآة) فذكر أنهم أناس صريحون وصادقون، لا يعرفون الحقد والبغضاء، وهم كرماء في أعمالهم، يحترمون الجيران كما لو كانوا أقارب... وليس في استطاعة الرجال ولو كانوا أشرارا أن ينالوا من التقاليد؛ لأن ذلك يكون بهتانا وتدنيسا... ويوجد لدى

[1] صالح خرفي، **شعر المقاومة الجزائرية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص ص7 . 8.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، **الآثار**، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1997، ص ص71-72.

[3] نور سلمان، **الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير**،دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص64.

الجزائريين من المحاسن ما يجلب الانتباه، إنهم أوفياء لا يعرفون سرقة ولا خيانة ولا قتلا ولا أي نوع من أنواع الجريمة، وعلى العموم فهم رجال شرف لا يخلفون بعهودهم أبدا[1]. وهذه الخلال الحميدة أكدها ((مالك بن نبي)) في مذكراته عندما ذكر أنه مكث في مدينة (أفلو) عاما كاملا دون أن تحدث جريمة، وحكى نادرة تركت في نفسه أثرا كبيرا تدل على القيمة العالية التي كان عليها المجتمع الجزائري، وهي قصة راع أودع قطيعه المؤلف من خمس مئة أو ست مئة جمل إلى من يرعاه، فافتقد الراعي ذلك المؤتمن، وبعد عامين رأى فجأة قطيعه في مضرب الخيام وقد بلغ ضعفين، ذلك لأن الذي أخذ القطيع ليرعاه تاه في الصحراء بحثا عن المرعى والكلأ، وقاده ذلك إلى حدود (السودان)، ومدة الذهاب والعودة التي حكمتها مسيرة القطيع قد استغرقت عامين، ولم يأخذ الراعي الأمين خلال كل ذلك إلا ما جادت به أثداء النوق من لبن لغذائه[2]. ومع أن ((ابن نبي)) لاحظ في المدينة نفسها سنة1927م وجود ظاهرة البغاء إلا أن ذلك كان عرضيا وفي حدود المناسبات ولا يصل إلى درجة البغاء المنظم الموجود في المدن كالجزائر، وأشار إلى أن هذا التردي بقي في الحدود الأخلاقية والاجتماعية، إذ بقي للبنت أصالة من شرف تستطيع أن تعود به إلى الطريق الصحيح[3].

لا يمكن أن نقول أن المجتمع الجزائري التقليدي قبل الاحتلال لم تكن فيه آفات اجتماعية البتة، فذلك لا يكاد يوجد في أي مجتمع من المجتمعات، ولكن كان الجزائريون في الغالب مجتمعا محافظا كريما، متمسكا بدينه، محافظا على القيم والأخلاق الإسلامية من حياء وشرف وأمانة وغير ذلك، لا يجهر بالمعصية، ولا يسكت عن المنكر ولا يرضى به، وهي قيم متوارثة أبا عن جد. ولكن الاحتلال الفرنسي راح يعمل معاول الهدم ويسعى في نشر الرذيلة وتعاطي المحرمات من خمور ومخدرات وتبغ، ويعمل على نشر كل ما يمكنه أن يضر بمقومات ومبادئ المجتمع الجزائري المسلم، واتخذ الفرنسيون كل الوسائل والسبل لإفساد أخلاق المجتمع الجزائري، ففتحوا الحانات، وأقاموا المواخير، وعلموا لأبناء المسلمين غشيانها، وجلبوا للسنيما الأفلام الساقطة التي تنشر في المجتمع الميوعة والضعف[4]. وتجاوزت السلطات الاستعمارية كل الحدود في فتح بيوت الدعارة ونشر الرذيلة في أوساط الشباب، وتساهلت في منح الرخص لطالبيها، بينما كانت تشدد في منحها لفتح مدرسة أو نادي، وجعلها في وسط الأحياء، وبجوار المساجد، فنشرتها كالوباء في كل حي دون مراعاة لحرمة الأوساط العائلية الشريفة، ولا

---

[1] حمدان خوجة، **المرآة**، ت: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص ص65ـ 66.

[2] مالك بن نبي، مذكرات شاهد قرن، ص176. 177.

[3] نفسه، ص180.

[4] محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2013، ص37.

احترام لقدسية الأماكن الطاهرة، فكانت بيوت العاهرات تحيط بجامع ((سيدي رمضان)) بحي القصبة إحاطة السوار بالمعصم[1]، وقد أرقت هذه الدور الشيخ ((أبا يعلى الزواوي)) فوقف لها بالمرصاد، وتصدى لها بشجاعة، وطالب بإغلاقها وأنكر على الحكومة الفرنسية أشد الإنكار قائلا: <<لو كان ذلك أمام كنيسة أو بيعة يهودية أو مدرسة البنات الفرنساويات لما سكت عنه[2]>>. وحذر المصلحون من استفحال ظاهرة الزنى والبغاء في المجتمع الجزائري، من ذلك بعض المقالات التي نشرت في جريدة (البصائر)، كتلك التي كتبها ((عبد الكبير الزمراني)) تحت عنوان (البغاء ومفاسده - أو صيحة في وجوه الفاسقين -) أين بين أضرار هذه الآفة الخطيرة من الناحية الدينية والاجتماعية والصحية. وإضافة إلى ذلك شجعت سلطات الاحتلال على تعاطي الخمور بفتح الحانات، وزراعة الكروم، وأصبح الجزائريون يعملون في هذه الحقول المشؤومة، ويشاركون في إنتاجها في المصانع المختلفة التي كانت موجودة عبر التراب الوطني.

وبسبب كل هذه الآفات انتشر الانحراف والإجرام خاصة في أوساط الشباب، وبدأ يظهر في حي القصبة مثلا بعض المنحرفين والمجرمين من زعماء العصابات الذين اقتسموا شوارع وأزقة القصبة السفلى والعليا بينهم، وسعى المجاهد ((مسعود بن الشيخ)) أشهر زعماء هذه العصابات وبين ما كانوا يمارسونه من الأعمال السيئة كالمخدرات والابتزاز وفرض الإتاوات على بعض الأسر، وحماية العاهرات وبيوت الدعارة[3]. وكتب ((عمر راسم)) عن انتشار الآفات الاجتماعية في المجتمع الجزائري في جريدة (ذو الفقار) الصادرة سنة 1913 قائلا: <<كيف يكون المسلم مسلما في بلد خلت مساجده من الراكعين الساجدين وامتلأت شوارعه باللصوص والتجار والسكيرين ... وفشا الانسلاخ من الدين والتظاهر بالفحشاء وتقليد الكافرين، كيف يكون المسلم مسلما في بلد انتشر فيه الربا والسلب والنهب[4]>>. وأما ((مالك بن نبي)) فقد ذكر في مذكراته أنه بدأ في مطلع القرن العشرين يظهر الانحراف والسقوط الأخلاقي، فقد شاع الخمر وانتشر شاربوه، وبدأت بوادر استغلال الثقة، ومخالفة تقاليد البلاد العريقة في الظهور، بينما أخذت هذه التقاليد بالاختفاء شيئا فشيئا[5].

---

[1] محمد الهادي الحسني، "ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم"، **جريدة الشعب**، الجزائر، 29 ديسمبر 1983.

[2] أبو يعلى الزواوي، "محاربة البغاء"، **جريدة البلاغ**، س2، ع85، 14 سبتمبر1928.

[3] مسعود بن الشيخ سي بشير، **أوراق من الذاكرة**، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2011، ص73.

[4] محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص95.

[5] مالك بن نبي، مذكرات شاهد قرن، ص17.

وصور لنا ((شارل روبير أجرون)) ما آل إليه المجتمع الجزائري من الانحراف واندراس الدين قائلا: << ... فحيثما اتجهنا نجد المدنيين المسلمين لا يحلقون رؤوسهم ولا يحتفظون بلحاهم ولا يتحرجون من تدخين التبغ، وبعضهم يتعاطى الخمر ومختلف المشروبات الكحولية القوية، وحتى الذين يأكلون في عز الصيام لم يتعرضوا للوجم ولا للمقاطعة، مثلهم في ذلك مثل المتهاونين بصلاتهم أو مثل الذين نشئوا بالمدارس الفرنسية فصاروا يجهلون حتى المبادئ الأولية لدينهم[1]>>. وبدوره صور لنا الشيخ ((الطيب العقبي)) صورة المجتمع سنة 1926 في مقال نشره في جريدة (النجاح) حيث يذكر أن الانحلال الخلقي كان سائدا بشكل ظاهر، وتجسدت الرجولة في شارب الخمر وقاطع الطريق، وانتشرت ظاهرة الزنا والدعارة بتشجيع من فرنسا التي فتحت لها الأبواب، واعتبرت كل من يتصدى لمومس جانيا، ويحاكم أمام العدالة لأنه اعتدى على الحرية، وأصبح المار في بعض شوارع العاصمة لا يسمع إلا ما يسوؤه من البغايا وهن متبرجات[2]. وذكر الأبيات الآتية في ذلك:

حيثمـــا تلتفـــت تجـــد قمـــرا يـــز ... هـــو شمســـا بديعـــة الإشـــراق

وجمـــيلا تـــلا جمـــيلا ومعشـــو ... قـــا غـــدا فِـــي جماعـــةِ العشـــاق

هكـــذا كلهـــا الجزائـــو فـــانظر ... فاتِنـــاتٍ وفـــاتِنٍ فِـــي الزقـــاق

أخذ الوازع الأخلاقي يتناقص تدريجيا في المجتمع الجزائري وهذا ما أدى إلى اختلاط الحابل بالنابل ودخول ظواهر غربية لم تكن مألوفة من قبل حسب تعبير جريدة (الشهاب)، وقدمت لنا الجريدة ذاتها صورا عديدة عن تجذر بعض العادات الدخيلة والسلوكيات الغريبة في المجتمع الجزائري والتي تتنافى مع العرف والشرع، وخاصة ما كان يحدث في الأفراح من جلب الآلات والراقصات، وما يتبع ذلك من مسكرات، حيث ذكرت الشهاب أن أناسا أقاموا زفاف قريب لهم فجلبوا من الراقصات وما يلزمهن من آلاف الفرنكات التي تصرف عليهن[3]. ونشرت في موضع آخر حادثة تدل على مدى انتشار الخمر حيث لم تسلم المساجد من عربدة المخمورين، ففي أحد أيام شهر صفر ذهب أحد الشباب لتأدية صلاة المغرب في المسجد وهو يرتدي طربوشا من صنع مكة، وإذا بسكران عند باب المسجد يحاول الاعتداء على الشاب بحجة أن الطربوش الأسود يحرم الدخول به إلى المسجد، وظل السكران عند الباب يسب الإسلام ويتكلم بالفحش، ولم يجد من ينكر عليه من الحاضرين.

---

[1] شارل روبير أجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا**، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص ص492- 493.

[2] أحمد مريوش، **الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية**، دار هومه، الجزائر، 2007، ص114.

[3] مصطفى بن شعبان، "نظرة في البدع"، **الشهاب**، م1، ع4، 3 ديسمبر 1925، ص78.

وبخصوص الشباب الذي يعد القوة الضاربة لأي مجتمع فقد كتب عنه ((خليفة بن عمار)) مقالا سنة 1936 في جريدة (البصائر) يرثي حاله ويصف واقعه قائلا: <<فلم يكن لهم حظ من العلوم والأخلاق، وأكثرهم لا هم لهم إلا التأنق في الملابس وتقليد الأجانب في عاداتهم وسلوكهم، لا يرتادون إلا مواطن الفسق والفساد، ولا تكاد تجد خمسة في المائة يقومون بشعائر دينهم وينظرون إلى الدين الإسلامي بعين الاحترام كدين سماوي مقدس[1]>>.

2.2 استبدال اللباس التقليدي باللباس الغربي:

لم يعد اللباس مجرد غطاء لستر الجسم والوقاية من الحر والقر فحسب، بل صار يتعداه ليصبح عنوانا للهوية، والشكل الخارج للتميز الهوياتي للأفراد والمجموعات السكانية، تعبيرا لهم عن انتماءاتهم الحضارية الدينية والجغرافة. وتعتبر الأزياء والملابس المحلية من مقومات ومميزات الشخصية، وهي تعكس تاريخ وعادات وتقاليد المنطقة، كما تعكس صورة المجتمع والحياة فيه، والتخلي عنها يعد من علامات الضعف والتقهقر.

ويذكر ((حسين مؤنس)) أن للملابس مكانتها الحضارية[2]، ويرى المفكر ((مالك بن نبي)) أن التوازن الأخلاقي في أي مجتمع منوط بمجموعة من العوامل الأدبية والمادية، والزي واللباس هو أحد تلك العوامل؛ لأنه يضفي على صاحبه روحه على حد تعبيره[3]، فاللباس يعد جزءا هاما من ثقافة المجتمع؛ إذ يحمل الكثير من القيم والرموز الاجتماعية. وقد يبدو أن اللباس شيء خارجي وثانوي لا يؤثر على حياة الإنسان العقلية والروحية، غير أن اللباس عموما يكون نتيجة لتصورات شعب ما في ناحية معينة، وهو في ذلك يتفق مع الإدراك البديعي لذلك الشعب، ومع ميوله كذلك. فالزي الأوربي مثلا يتفق مع الخصائص العقلية في أوربا، وبلبس الثياب الأوربية يوفق المسلم بشعور أو بدون شعور بين ذوقه والذوق الأوربي، ثم يشوه حياته العقلية بشكل يتفق مع اللباس الجديد، وبهذا يكون المسلم قد تخلى عن الإمكانيات الثقافية لقومه وتخلى عن ذوقهم التقليدي، وتقبل لباس العبودية التقليدية الذي خلعته عنه المدنية الغربية[4]. ومن دون شك يعتبر تقليد المسلمين فرديا وجماعيا لطريقة حياة الغرب من أعظم الأخطار التي تستهدف الثقافة الإسلامية، وهو ينمي إلى نوع من الشعور بالنقص.

---

[1] خليفة بن عمار، "هل لشبابنا حظ من العلوم والأخلاق الفاضلة"، **البصائر**، م1، ع3، 17جانفي 1936، ص6.

[2] حسين مؤنس، **الحضارة**، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص376.

[3] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ت: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1986، ص ص122.123.

[4] محمد أسد، **الإسلام عل مفترق الطرق**، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص ص 82.83.

يتكون اللباس الجزائري التقليدي من عدة قطع بعضها بأكمام والبعض الآخر من دون أكمام[1]، فلباس علية القوم من الأعيان والوجهاء وأصحاب المناصب الحكومية يتألف من سروال عريض وقميص عادي وزنار عريض في الخصر وفوق الكل معطف. وهناك نوع آخر من اللباس وهو عبارة عن سراويل ضيقة ومشمرة تنتهي عند ربلة الساق، وفوقها قميص ثم معطف ثم فوق المعطف ثم فوقه ثوب فضفاض طويل وفوق الجميع رداء يشبه العباءة إلا أنه مخيط من الأمام بحيث يصبح كالثوب، وهذا ما يسمونه بالبرنوس، وهذا النوع من اللباس هو لباس عامة الناس ولاسيما أهل القرى، وأما الفقراء منهم فكان أكثر لباسهم الجلابية[2]. ولباس الرأس هو "العمامة"، والرجلين "البلغة"، وأما الجوارب فلا يلبسها إلا الشيوخ وفي حالة البرد فقط[3]. وأما المرأة فكان لها لباسها الخاص وهو يختلف من منطقة إلى أخرى والحائك هو العنصر المشترك بين أغلب المناطق مع العجار أو دونه، والمرأة التلمسانية والقسنطينية كانت ترتدي "الملايا" وهي عبارة عن ملحفة سوداء تلف الجسد كله فلا تترك منه إلا الوجه سافرا ثم يغطى هذا الوجه بما يعرف بـ "العجار" وهو قطعة قماش بيضاء شفافة أحيانا تغطي الأنف والفم. وبقية المدن الجزائرية احتفظت بلباسها التقليدي الملائم لبيئتها وعاداتها. ولم تكن المرأة الجزائرية تعرف اللباس القصير أو الضيق أو الشفاف.

وعموما كان الجزائريون قبل تأثرهم بالأزياء الغربية يتميزون بزيهم الخاص ولباسهم التقليدي الفضفاض المنسوج، وبعد تعرضهم لحملات التغريب أصبحوا يقلدون الفرنسيين ويتخذون ملابس غربية غريبة عن عادات المجتمع التقليدي المحافظ، فظهر اللباس الضيق الملتصق بالبدن، القصير بالنسبة للنساء خاصة، المخيط والمزرر[4]. وأول لباس غربي عرفه الجزائريون هو اللباس العسكري الأوربي بعد انخراط الجزائريين في صفوف الجيش الفرنسي. كما كان لقيام المؤسسات الاقتصادية والإدارية دورا في تحول نمط اللباس عند الذكور والإناث، إلا أن هذا سيأخذ وقتا إلا ما بعد الأربعينات والخمسينات عندما تدخل المرأة المدرسة الفرنسية وسوق العمل، وقد ذكرت الراهبة "روش" أن الفتيات الجزائريات كن يذهبن إلى المدارس وهن يلبسن اللباس الأوربي[5]. والعجيب أن هذه

---

[1] وليام شالر، **مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر**، تعريب: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص83.

[2] إحسان حقي، **الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد**، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر،ط1، بيروت، 1961، ص207.

[3] وليام شالر، المرجع السابق، ص83.

[4] شارل روبير أجرون، المرجع السابق، ص492.

[5] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج6، دار الغرب الإسلامي، ط1،بيروت، 1998، ص355.

الظاهرة امتدت إلى المدراس الجزائرية الحرة كمدرسة دار الحديث التي أسستها جمعية العلماء المسلمين، وقد نشر محمد خير الدين صورة لمجموعة من المعلمات الجزائريات مع الشيخ البشير الابراهيمي ومدير المدرسة "محمد الصالح رمضان" وهن سافرات[1].

نشرت جريدة (البصائر) سنة 1954 أن أحد الصحفيين الأوربيين زار الجزائر وبعدما انتقل في المدن الكبرى خيل إليه أن عدد الأوربيين أكثر من الأهالي الجزائريين نظرا لمظاهر زيهم الأوربي حيث ليس هناك ما يميزهم عن الأوربيين، فكانوا يبدون ولاسيما الشباب منهم كالأوربيين، حتى أنك لا تكاد ترى من يلبس اللباس الأهلي التقليدي إلا طائفة ضئيلة العدد من الشيوخ المحافظين لا تعد شيئا مذكورا بالنسبة للكثرة الضخمة البادية في اللباس الأوربي من الشباب والكهول[2].

وكانت البرنيطة أو القبعة الأوربية من أهم سمات التحديث والتغير الاجتماعي وقد أثارت جدلا واسعا في العالم الإسلامي خاصة تركيا ومصر، ونشرت (الشهاب) عدة مقالات عن حكم لبس القبعة، من ذلك فتوى الشيخ ((محمد رشيد رضا)) حيث يقول: << ... وجملة القول في لبس البرنيطة وغيرها من أزياء الإفرنج أنه مباح لذاته، وإنما يحرم بما يكون وسيلة له من ضعف الرابطة الملية وتفضيل مشخصات خصوم الأمة الطامعين فيها على مشخصاتها، وإذا قصد به ما يقصده ملاحدة الترك من التوسل به إلى الكفر كان كفرا[3] >>. وقد سجل ((مالك بن نبي)) في مذكراته موقف أساتذته الذين استاؤوا من ارتدائه للملابس الأوربية[4]. ولكن مع مرور الوقت سيزول هذا الاستياء وسيصير شيئا مألوفا لدى المجتمع الجزائري خاصة الطبقة المثقفة منهم وهذا ما ذكره ((شارل روبير أجرون))، فقد نص على أن التحذيرات من البدلة الأوربية ومن القبعة بصفة خاصة قد زالت[5].

---

[1] محمد خير الدين، **مذكرات**، ج1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985، ص191.

[2] باعزيز بن عمر، "في مجتمعنا الجديد مشكلة اللباس"، **البصائر**، م7، ع281، 30 جويلية 1954، ص2.

[3] مجهول، "لبس القبعة"، الشهاب، م2، ع38، 15جويلية 1926.

[4] مالك بن نبي، مذكرات شاهد قرن، ص 110.

[5] بشير بلاح، **مواقف الحركة الإصلاحية الجزائرية من الثقافة الفرنسية**، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص130.

3.2 الزواج المختلط:

قبل الولوج إلى هذا الموضوع المهم لا بد أن أشير إلى أنني لا أتعرض ههنا في البحث من الناحية الدينية الشرعية، وإن كان الإسلام يجيز الزواج من الكتابيات بشروط، ولكني أحاول أن أبحث الموضوع من الناحية الواقعية، وما له من دور في اختلال توازن الأسرة الجزائرية في تلك الفترة.

لم يكن هذا النوع من الزواج بالمشهور في المجتمع الجزائري قبل الاحتلال، رغم أن الشيخ أبا القاسم سعد الله نص أن الزواج المختلط قد حدث بين جزائري وفرنسية قبل الاحتلال[1]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قلته وندرته. وبعد وقوع الاحتلال ونظرا للاختلاط بالأوربيين بدأت هذه الظاهرة تظهر على الساحة، وفي حدود بحثي لاحظت أن هذه الظاهرة ظهرت جليا أول الأمر في شيوخ الطرق الصوفية، ولا شك أن هناك سرا ما في هذا، يبقى فيه المجال مفتوحا للدراسة. فقد تزوج «أحمد التيجاني» شيخ الطريقة التيجانية بعين ماضي من الفرنسية «أورلي بيكار» مع عدم اعتناقها للإسلام، وهذا الزواج باركته السلطات الفرنسية وكنيسة بوردو، كما باركه الكاردينال «لافيجري»، فكان بذلك زواجا مشبوها وغير عادي، وكان لخدمة أهداف بعيدة. ولما مات «أحمد التيجاني» سنة 1897م أمر الحاكم «كامبون» البشير التيجاني أن يتزوج "أورلي" فأذعن وخضع ولبى وأطاع[2]. وبهذا يظهر جليا مدى تشجيع الاستعمار الفرنسي لهذا النوع من الزواج كتقليد ذو تبعات اجتماعية وثقافية خطيرة تشكل تهديدا مباشرا لمقومات الشخصية العربية في الجزائر. وكذلك تزوج «حمزة بن بوبكر» أحد أقطاب أولاد سيدي الشيخ من الفرنسية «فيري»، وتزوج «محمد الشرقي العطافي» تلميذ الشيخ «وعدة بن غلام الله» وصاحب زاوية العطاف من امرأة فرنسية، وتزوج شيخ الطريقة الطيبية «عبد السلام بن الطيب» من امرأة انجليزية دخلت تحت الحماية الفرنسية، وكذلك فعل الشيخ «البودالي الهبري»[3].

امتدت هذه الظاهرة إلى بعض الزعماء السياسيين والمثقفين الجزائريين، فهذا «ميصالي الحاج» تزوج بالسيدة الفرنسية «إميلي بوسكان»، وقد تحدث «ميصالي» نفسه عن طريقة زواجه في مذكراته بداية من التعارف إلى الزواج والتي كانت بعيدة كل البعد عما كان يتعارف عليه الجزائريون أنذاك. وقد نص هو بنفسه على ما ذكرناه سابقا من أن الزواج بين الجزائريين والفرنسيات كان نادرا للغاية في تلك الفترة إلى درجة على الأقل مثل التجنيس على حد تعبيره، وذكر أنهم كانوا في تلمسان سنة 1925 لا

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج5، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ص116.

[2] نفسه، ص ص 120 . 122.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص312.

يعدون إلا فرنسية أو اثنتين متزوجين من جزائريين[1]. وزواج الزعماء السياسيين والمفكرين الجزائريين من الأوربيات لاحظه كذلك الشيخ ((أبو القاسم سعد الله))، وذكر أنه شهدته فترة ما بين الحربين، وأن أولئك الزوجات كان لهن تأثير كبير على توجهات أزواجهن، ومن ثم على المجتمع بالطبع، ثم مثل بزواج ((ميصالي الحاج)) زعيم حزب الشعب، و((فرحات عباس)) زعيم حزب البيان، والفيلسوف ((مالك بن نبي))[2] الذي تزوج من شابة فرنسية تدعى ((كريستين بول فيلبون)) وعقد عليها سنة 1935 في باريس، واختارت لنفسها اسم ((خديجة)) وزارت الجزائر صيف 1932 وتأقلمت هناك مع ثقافة وعادات وتقاليد الجزائريين حتى مع الحجاب[3]. والدكتور ((شريف سعدان)) الذي أنجبت له زوجته الفرنسية ابنا سماه هو ((محمد صالح))، وسمته هي ((موريس))، وهذا ما دفع الشاعر ((محمد الأمين العمودي)) ينكت على ذلك بأبيات جاء فيها:

حـــي الطبيـــب ولا تنســـى قرينتـــه ... هـــو ســـليمان والمـــدام بلقيـــس

لـــه غـــلام أطـــال الله مدتـــه ... تنـــازع العـــرب فيـــه والفرنسيـــس

لا تعـــذلوه إذا مـــا خـــان أمتـــه ... فنصـــفه صـــالح والنصـــف مـــوريس

وقد حاولت أن أقف على بعض النماذج بخصوص زواج الجزائريات من الفرنسيين لكني لم أظفر بذلك في حدود بحثي.

وحسب بعض الإحصاءات فقد تم عد في الفترة ما بين 1939 إلى 1953 أي خلال 15 سنة 229 زواج جزائريين مسلمين بفرنسيات، و153 زواج فرنسيين مع جزائريات مسلمات، هذا في الجزائر، وأما في وهران فقد تم تسجيل 75 زواج جزائريين بفرنسيات، و39 زواج فرنسيين بجزائريات، وفي فرنسا ضبط 400 زواج مختلط في السنة[4].

وفي بعض الإحصاءات لظاهرة زواج الجزائريين بالأوربيات في عام 1948 جاء ما يلي[5]:

---

[1] ميصالي الحاج، **المذكرات 1898-1938**، ت: محمد المعراجي، منشورات ANEPK، الجزائر، 2006، ص129.

[2] أبو القاسم سعد الله أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، ص127.

[3] مالك بن نبي، مذكرات شاهد قرن، ص255 . 256.

[4] ميصالي الحاج، مذكرات، المرجع السابق، ص129.

[5] يحيى بوعزيز، **السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب**، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 2007، ص300.

الجدول 01: إحصاء زواج الجزائريين بالأوربيات عام 1948:

المقاطعة	عدد الزيجات
قسنطينة	2439 زيجة
الجزائر	2306 زيجة
وهران	710 زيجة
مناطق الجنوب	204 زيجة
المجموع	5659 زيجة

وهذا عدد معتبر، خاصة في المدن الكبرى كقسنطينة والجزائر نظرا للاختلاط الكبير بالأوربيين، وبعضهم أوصل العدد إلى 7 أو8 آلاف زيجة.

نتج عن الزواج المختلط كثير من المشاكل بين الوالدين[1]، وكذلك ما يعرف عنه بقلة النسل، وترك تعدد الزوجات الذي كان شائعا في المجتمع الجزائري، فانتشرت بذلك ثقافة الزواج الأحادي تحت تأثير من الحضارة الغربية، وإضافة إلى كل هذا فقد كان الأبناء الذين يولدون من زواج المسلم الجزائري والزوجة الفرنسية يتبعون جنسية أمهم بموجب القانون الفرنسي، فيكونون بذلك فرنسيين، ولا يستطيع الأب منعهم من ذلك[2]. وقد تعرض الشيخ ((محمد السعيد الزاهري)) إلى مسألة الزواج بالأجنبيات وبين أضراره وأخطاره على الأسرة الجزائرية، وذكر بأن الجزائري الذي يتزوج من الأجنبية قد وقع في سوء الاختيار، لأن الأجنبية لا تعرف الحشمة والحياء، و بذلك فلن يكون ذلك الزواج موفقا وسعيدا؛ لأن تلك المرأة تكره عروبته وإسلامه[3].

ومن مخاطر هذا النوع من الزواج خاصة بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يعيشون في المهجر هو صعوبة التحكم في تربية الأبناء وتنشئتهم التنشئة الإسلامية التي تحافظ على مقومات هويتهم الوطنية والدينية، مع العلم أن الآباء أنفسهم مهددون في ذلك الوسط بفقدان تلك المقومات[4]، وهذا ما دفع الشيخ ((البشير الإبراهيمي)) إلى التنبيه عن الموضوع وبيان خطره قائلا: << وتزوج كثير منهم من أوربيات

---

[1] يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص301.

[2] محمد الصالح رمضان، "دعوة جمعية العلماء ونهجها الإصلاحي التربوي في عهد رئاسة ابن باديس لها"، **البصائر**، ع65، 1- 8 أكتوبر2001.

[3] أحمد بلعجال، **الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد السعيد الزاهري**، رسالة ماجيستير، إشراف: جمعي خمري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص163.

[4] سعيد بورنان، **نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936-1956**، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص54.

عاملات، وولد لهم في أرض مسيحية من زوجات مسيحيات، فكانت النتيجة اللازمة لهذا أن الآباء أضاعوا دينهم بتأثير البيئة، فضلا عن الأبناء الذين اجتمعت عليهم البيئة والأمهات والقانون، إنهم بلا شك ينشؤون مسيحيين خالصين[1]>>. كما أن أولئك الزوجات الأجنبيات سوف يعملن مستقبلا على فرنسة أزواجهم، وهذا ما عبر عنه ((أحمد رضا حوحو)) بقوله: <<أعرف كثيرا من الرجال الشرقيين تزوجوا من نساء أجنبيات وقليلون جدا لم تفرنجهم زوجاتهم>>. وقد يؤدي هذا الزواج في بعض الأحيان إلى تبديل دين الأجداد، ولنا مثال حي في تلك المرأة المبشرة البروستانتية التي تحدث عنها ((محمد الطاهر وعلي)) والتي قبلت الزواج بجزائري من منطقة القبائل، وكان غرضها مثل غرض باقي المبشرات هو صرف المسلمين عن دينهم وتكوين أسر من المتنصرين في الجزائر[2].

4.2. تيار تحرير المرأة:

كان وضع المرأة زمن الاحتلال لا يختلف عن الوضع العام الذي كانت عليه الجزائر، وقد حاول الاستعمار تجريد المرأة من سترها وحيائها وجعلها نسخة للمرأة الأوربية؛ لأنه يدرك تمام الإدراك أن أحسن طريق وأنجع وسيلة للوصول إلى تدمير شخصية وأصالة ومميزات هذا الشعب بالاستيلاء على عقلها؛ لتكون بذلك أداة لتحويل الأسرة وتغريبها، ومن ثمت تغريب المجتمع[3]، إلا أن المرأة الجزائرية طول هذه الفترة بقيت متمسكة بدينها محافظة على تقاليدها معتزة بانتمائها، ومع الإغراءات المختلفة للاحتلال والتركيز على المرأة والدعوة لتحريرها لم تسلم بعض النساء الجزائريات من الافتتان بالاقتداء بالأجنبيات، في اللباس والحركة والقوام، والترويح عن النفس بالخروج والتنزه سويعات في الشوارع، فقد انبهرت فئة تحديثية بالاتجاه التحرري للمرأة، حتى تكون بالتدرج تيار صغير لتحرير المرأة على الطريقة الفرنسية، فحظي ذلك التيار بدعم مجموعة من الكتاب الفرنسيين الذين حركتهم نزعتهم الاستعمارية لتسريب قيمهم المرفوضة من قبل المسلمين واستخدام المرأة سلاحا ماضيا لاستبدال القيم العربية الإسلامية بالقيم الغربية الفرنسية[4].

بدأ تيار تحرير المرأة في الجزائر يتقدم ببطء ولكن بخطى ثابتة مع احتفاظ أكثر الجزائريين بالتقاليد وتمسكهم بالشريعة، وهذا أدى إلى وجود أقلية تحديثية في المجتمع تنأى عن الثقافة العربية الإسلامية

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص168.

[2] محمد الطاهر وعلي، **التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1914، دراسة تاريخية تحليلية**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009، ص ص139 . 141.

[3] زهور ونيسي، "جوانب من مساهمة المرأة في صنع النصر"، **مجلة الأصالة**، العدد 22، أكتوبر . نوفمبر1974، ص155.

[4] بشير بلاح، مواقف الحركة الإصلاحية، ص189-190.

لكنها نشطة وتعرف أهدافها[1]. وقد عابت أنذاك الآنسة ((زهور ونيسي)) افتتان بعض بنات عصرها الجزائريات بذلك التيار وما يحمله من أفكار خداعة، ونشرت في جريدة (البصائر) مقالا تحت عنوان (المرأة الجزائرية والتمدن) تذم فيه تقليد النساء المسلمات الجزائريات لغريماتهن الفرنسيات في مختلف العادات كالزي والزينة والمشية والحركة، إلى درجة أنهن اقتدين بهن في كل شيء حتى في اللغة التي تغلبت على لغتهن العربية لغة آبائهن وأجدادهن، ظنا أن ذلك من أمارات التقدم والتمدن، وقد وصفت ذلك قائلة: <<ترى المرأة تتكلم بالفرنسية وفي إشارة يدها وحركاتها كبرياء، وفي لهجتها زهو وفخر، كأن كلامها ذلك هو ما خلفاه لها خديجة وعائشة من لهجات الضاد الرنانة الفصيحة[2]>>.

بدأت المرأة تخرج إلى ساحة النشاط والعمل واختلطت بالرجال دون تورع في المدارس والمصانع والإدارات. وترك بعضهن أحجبتهن، وقد ظهر ذلك في البداية حسب ما ذكرته جريدة ((الفاروق)) في أوساط نساء الشرفاء، تقليدا لنساء الحكام الأوربيين خاصة في المناسبات والاحتفالات التي يحضرها الأغوات، وكتبت الجريدة سنة 1914 عن استفحال هذه الظاهرة ما يلي: <<لقد تمزقت أستار العفة لدى المسلمين إلى حد أن أصبحنا نرى أفاضل الرجال الذين ظهروا بين الناس بسمعة العقل والنباهة لا يرون الفخر كل الفخر إلا في تبرج نسائهن تبرج الجاهلية الأولى[3]>>. وتمردت بعض النساء على العادات والتقاليد الإسلامية، فهذه ((حليمة بنت يوسف الزياني)) التي اشهرت بلقب (القايدة حليمة) عرفت في المنطقة الغربية من الجزائر بالخروج عن التقاليد؛ إذ كانت تخرج سافرة، وتستقبل الوفود التي كانت تقصد زوجها الذي كان يتولى وظيفة إدارية للفرنسيين، وتحضر الحفلات التي يقيمها المسؤولون الفرنسيون لأعيان الموظفين الجزائريين. ويروى أنها قبل وفاتها ذهبت إلى الحج واستبدلت لقب القايدة بلقب الحاجة[4].

وفي شهر ماي من سنة 1958 وقع أمر خطير في مدينة قسنطينة، حيث اجتمع الناس في أحد اللقاءات يتزعمهم إمام مسجد سيدي الكتاني أنذاك، بحضور نحو 100 ألف شخص، منها شخصيات فرنسية مرموقة، كـ((سوستيل)) و((سالان))، وبعد كلمة ألقاها ذلك الإمام دعا فيها المرأة إلى الثورة ضد مبادىء عصور مضت، وضرورة مشاركة الرجل في الوجود، وأن فرنسا تحميهم وتساعدهم في بلوغ أهدافهم، فقامت امرأة جزائرية مسلمة بأخذ الكلمة وحرضت النساء على عدم تفويت الفرصة للسير في طريق التحرر الكامل والمطلق، ثم دعت النساء للقيام بعمل رمزي يبرهن به على بداية وجودهن

---

[1] بشير بلاح، المرجع السابق، ص197.

[2] زهور ونيسي، "المرأة الجزائرية والتمدن"، **البصائر**، م7، ع291، 29 أكتوبر 1954، ص8.

[3] جريدة الفاروق، ع14، 16 جانفي 1914.

[4] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص344.

الجديد، فقامت هي أولا بنزع حائكها الأبيض ثم حجابها، ورمت بهما من الشرفة وسط دوي من الصياح والتصفيق، ليتبعها بمثل ذلك الفعل فتيات أخريات.

وتكرر المشهد نفسه في الغرب الجزائري وبالضبط في مدينة وهران في الشهر والسنة نفسها، حيث تجمع أكثر من 50 ألف شخص في أحد المسارح، وبعد كلمات ألقيت من طرف السلطات المحلية يتقدمهم الجنرال ((ماسو))، توالت على المنصة فتيات جزائريات مسلمات في سن الزهور بلباس أوربي، يطلبن من أخواتهن التخلي عن أحجبتهن التي تمنعهن من تحرير شخصيتهن، فقامت مجموعة من النساء الموجودات في القاعة بنزع أحجبتهن ودسهن بالأقدام. وفي الجزائر العاصمة قامت نساء جزائريات بالحركة المشهورة سموا على إثرها بنساء 13 ماي بإحراق أحجبتهن تعبيرا عن رفضهن للمجتمع الجزائري المسلم، واندماجهن في المجتمع الفرنسي الغربي[1]. وبخصوص هذه الحادثة تذكر ((زهور ونيسي)) أن ما وقع في الجزائر العاصمة كان تمثيلية سيق إليها الناس بالقوة وتحت ضغط السلاح أكرهت بعض النساء على خلع أحجبتهن وحرقه، وفي اليوم الموالي لم تظهر أي امرأة جزائرية في الطريق سافرة حتى اللواتي كن قد أسفرن على وجوههن قبل الحادث عدن إلى الحجاب[2]. وكشفت بعض التقارير في وقت لاحق أن إحدى الشابات الجزائريات خلعت حجابها تحت التهديد بتنفيذ حكم الإعدام ضد شقيقها الذي كان معتقلا لدى قوات الاحتلال، أما بقية النساء اللاتي شاركن في ذلك فكن يخشين تسريحن من العمل في بيوت الفرنسيين[3]. وبهذا فلا يبقى مجال للشك أن هذه العمليات قد امتدت إليها يد استعمارية تنظمها وتخطط لها، وأحيانا تتخذ طابعا تمثيليا، وربما تكون بعض النساء الجزائريات المسلمات قد انخدعن بها وسقطن في شراكها، خصوصا في ظل الترويج والتضخيم الإعلامي، ولكن عموما بقيت المرأة الجزائرية محافظة على دينها وحجابها وعاداتها وتقاليد مجتمعها، وقد جاء وصف حال المرأة على لسان ((أحمد توفيق المدني)) عندما قال فيهن: ((وأما السيدات فلم يختلطن بمستعمر، ولم يعرفن أجنبيا، ولم يترددن على مدرسة، ولم يدخل العبث والرجس بيوتهن، فكن من أطهر وأجمل وأجل ما يستطيع الإنسان ذكره عن سيدة مسلمة عربية، تقية نقية، طاهرة

---

[1] محمد سليم قلالة، **التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد**، دار الفكر، دمشق، 1988، ص ص133.136.

[2] زهور ونيسي، "جوانب من مساهمة المرأة في صنع النصر"، ص156.

[3] موقع https://www.trtarabi.com، عندما أجبرت فرنسا النساء المسلمات على خلع الحجاب، اطلع عليه يوم 2022/07/14.

ورعة، حفظت من جزائر الأجداد دينها وإيمانها وعروبتها وعزتها وشرفها. وورثت عنها ابنتها تللك التقاليد وتلك الأخلاق[1]>>.

3. مظاهر التغيرات الفكرية والايديولوجية:

1.3. ظهور النخبة المفرنسة:

استطاعت سلطات الاحتلال بفضل سياستها التعليمية من فرنسة الكثير من الجزائريين فكريا وسلوكيا، وأصبح هؤلاء يشكلون طبقة منغلقة على نفسها متنكرة لوطنها ولغتها وتاريخها وقوميتها، متفتحة على الثقافة الغربية والحضارة الأوربية تنشد الاندماج في المجتمع الفرنسي، وأصبحت هذه الفئة تعرف بالنخبة ويمثلها مجموعة من المتعلمين في المدارس الفرنسية الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية وانبهروا بحضارتها، وكان معظمهم متجنسا، أو حائزا على شهادات ثانوية وجامعية، منهم الأطباء، والصيدليون، والمحامون والقضاة، والصحفيون، والمعلمون، والموظفون، والمترجمون. كانت حياة هذه النخبة قائمة أساسا على الفكر الغربي في كل شيء، في نمط العيش والثقافة وطريقة العمل، وكانت ترغب في تحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع غربي. ظهرت هذه النخبة في أواخر القرن الـ 19 وقبل أعضاؤها التجنس بالجنسية الفرنسية والاندماج في المجتمع الجديد الغربي، ورضي بعضهم بالتخلي عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية، فتنكروا بذلك لقيم الأمة الجزائرية، وكيف لا يكون ذلك وقد تتلمذوا على يد مستشرقين همهم الوحيد طمس معالم التاريخ القومي للشعوب العربية الإسلامية وإنكار حضارتهم[2].

وقد وجدنا من أفراد النخبة من حمل أفكارا متطرفة كـ ((فرحات عباس)) الذي أنكر وجود وطن اسمه الجزائر. وفي خطابه في المجلس العام سنة 1935 طالب بالبقاء تحت شعار فرنسا الكبيرة؛ لأن الشعوب العربية حسبه غير قادرة على بلوغ العيش كأحرار وتشييد مجتمع[3]. وأما ((الشريف ابن حبيلس)) فقد كان يرى أن فرنسا هي القوة المنقذة للمجتمع الجزائري مما كان يعيشه من صراعات قبلية وهمجية في عصور الانحطاط. ومن هذا المنطلق فقد كان يدعو إلى القطيعة مع الماضي والتفكير

---

[1] أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص31-32.

[2] عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997، ص ص246- 247.

[3] فريد حاجي، **السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر المنطلق السيرورة المآل 1837-1937**، الدار الخلدونية ، الجزائر، 2013، ص414.

في المستقبل، وهو يرى أن الحضارة الإسلامية التي أشعت في الماضي قد أفلتت اليوم، لأن الحضارة الغربية هي السائدة في عالم اليوم، ولأنه ليس بإمكان أمة تعيش في القرن العشرين التمسك بمثالية القرن الخامس عشر، فيجب حسبه على العائلة الجزائرية أن تتطور، ولا شيء يمنعها من الدخول والذوبان والانصهار في العائلة الفرنسية الكبيرة[1]. وطالب ((رابح الزناتي)) في كتابه (المشكلة الجزائرية كما يراها وطني) الصادر سنة 1938 المحتل بمزيد من الوقت؛ لكي يتسنى له ولأمثاله ردم الهوة بين الثقافتين، حيث يقول: <<إن الهدف الذي يجب الاتجاه إليه قبل كل شيء هو فرنسيتنا، أي إعطاءنا روحا فرنسية وعقلية غربية، وبالأخص التيسير لنا بأن تستجيب لمصيرنا الذي هو الدخول دون تردد في رحاب الأمة الفرنسية[2]. ووصل الأمر بأحد أعضاء المجلس البلدي في مدينة الجزائر أن يصرح لزميله الفرنسي بأنه يشعر بالخجل من عربيته[3].

ويصف ((باعزيز بن عمر)) هذه الطائفة بأنها لا شرقية ولا غربية، إذ لو كانت صحيحة الانتساب إلى الشرق لتعلقت بلغته وثقافته، وبنت ما تأخذه من الأجانب عليها، فهضمت كل ذلك هضما لا يجعل للتغرب والتفرنج عليها سبيلا، ولم تكن غربية لأنها لم تتعلم عنه إلا ما تتطلبه قاعدة "التواليت" التي تتفنن في إتقانها، وهذا لا يحقق الانتساب إلى الغرب، ما أخذته من ثقافته ولغته إلا مقدار ما ترد التحية على الأسياد في المجالس الحكومية الاستعمارية[4]. وأما الشيخ ((سعد الله)) فقد وصف هؤلاء بأنهم كانوا يشعرون بالكمال بالنظر إلى المجتمع الجزائري، وبالنقص إلى المجتمع الغربي، ونتيجة لذلك ضاعوا بين المجتمعين[5].

23. المذاهب والإديولوجيات الفكرية:

لم يكن الجزائريون قبل الاحتلال الفرنسي يعرفون مذهبا أو فكرا غير المذهب والفكر الإسلامي ويطبقون ذلك في جميع نواحي الحياة الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وغيرها، لكن بعد صدمة الاحتلال الفرنسي بدأت مختلف المذاهب والايديولوجيات الفكرية الغربية تظهر في أوساط مجموعة

---

[1] جمال مخلوفي، **السياسة الثقافية الاستعمارية في الجزائر خلال الفترة 1900. 1954**، أطروحة لنيل شهادة دكتوراة علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أحمد بن بلة، وهران، 2019،ص137.

[2] فريد حاجي، المرجع السابق، ص416.

[3] أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1983، ص339.

[4] باعزيز بن عمر، "اللغة العربية في مؤتمر أنصار السلم"، **البصائر**، م2، ع80، 23 ماي 1949، ص1.

[5] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص159.

من المثقفين الجزائريين كالاشتراكية والشيوعية والإلحاد والماسونية، بخلاف العامة الذين وقف الجهل والأمية وسوء أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية حاجزا بينهم وبين تلك المذاهب[1].

ظهرت الاشتراكية والشيوعية في القرن التاسع عشر وانتشرا في القرن الذي يليه، وقد تسربا إلى الجزائر منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، غير أن حصيلة انتشارهما كانت ضئيلة، وقد تبناهما من الجزائريين بعض التجار والمثقفين المفرنسين ومن أمثلة من ذكروا بتبني الاشتراكية "سعيد فاسي"، والشيوعية "علي بوخرط" و"العربي البوهلي" و"حاج علي عبد القادر" و"عمر أوزقان"، غير أن هذا الأخير قيل أنه قد تراجع عن هذا المذهب فيما بعد[2]. وبسبب انتشار هذه المذاهب في بعض الأوساط الجزائرية، قام زعماء الإصلاح بالتحذير من مخاطرها وبيان موقف الإسلام من أطروحاتها[3]، ومن ذلك ما نشره "أحمد بن عزوز" في جريدة (الشهاب) محذرا من الشيوعية وموالاة الشيوعيين ووجوب محاربتهم بكل قوة المحاربة؛ لأن الإسلام والشيوعية متضادان لا يجتمعان بأي حال، فما اعتنق الشيوعية مسلم إلا من بعد ما عصي وخالف عن الإسلام[4].

وأما الماسونية فكانت بدايتها في الجزائر مع قادة الحملة الفرنسية والضباط والعسكريين الفرنسيين، من أمثال قائد أسطول الحملة الأميرال "دينيه" الذي قيل أنه كان ماسونيا، وكذلك قيل في "بيليسييه" و"دل ماندي" و"دي ميشال" و"بوجو" وغيرهم، وانتشرت بين أعيان المستوطنين، فكان نوابهم مثل "تومسون" و"ايتيان" و"تريل" و"غيو" رموزا من الرجال المساندين للماسونية[5]. والماسونية تنظيم سري للغاية، وهي مذهب معادي للدين، غير أنها كانت تظهر نفسها بثوب زائف على أنها دين الحرية والتسامح، وتدعو إلى الأخوة الإنسانية وتستعمل شعارات براقة، فاستطاعت أن تخدع وتجذب إليها مجموعة من أعيان المفكرين. وإضافة إلى مكافحة الأديان دعت الماسونية إلى فرض العلمانية، وتحرير المرأة، وحقوق الإنسان، واهتمت بالشيوعية.

كانت للماسونية في الجزائر عدة محافل، أشهرها محفل "بيليزير" بالعاصمة، ولم ينخرط الجزائريون في هذا المحفل حسب بعض المصادر إلا سنة 1848م، وهو جزائري واحد من بجاية لم يعرف حتى اسمه[6]. كان لهذا المحفل نشاط علني في العاصمة وله أتباع من الفرنسيين وبعض

---

[1] بشير بلاح، المرجع السابق، ص80.

[2] نفسه.

[3] نفسه، ص81.

[4] أحمد بن عزوز، "إنسانية الشيوعية بالجزائر...!"، **الشهاب**، م1، ع5، 10 ديسمبر 1925، ص94.

[5] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص417.

[6] نفسه، ص413.

الجزائريين المتجنسين، ذكر منهم أبو القاسم سعد الله كلا من ((بلقاسم بن التهامي)) و((عمر بوضربة)) ولم يجزم بشيء بخصوص ((محمد صوالح)) و((تامزالي)) وذكر قول آجرون فيهما أنها كانا غير مرتبطين بالدين الإسلامي صراحة، وأن ابن التهامي وبوضربة كانا لائكيان جدا[1].

ومن أشهر المحافل الماسونية في الشرق الجزائري محفل ((سان فانسان دي بول))، ومحفل ((سيرتا)) الذي كان رأسه الصحفي ((أندري سيرفييه))، محرر جريدة (لاديباش القسنطينية) وهو محفل ماسوني كان يعمل على تجنيد المتطوعين الجزائريين في المحفل والدخول في الماسونية[2]. ويذكر الشيخ ((أبو القاسم سعد الله)) رحمه الله أن المصادر أوردت أن معظم الجزائريين الذين دخلوا الماسونية كانوا من المنطقة الشرقية، خاصة من عنابة، وبلغ عددهم 37 فردا، غير أن أسمائهم غير معروفة صراحة إلا أنه يمكن معرفتهم في تصاريحهم وكتاباتهم[3].

وكان بالغرب الجزائري محافل أخرى منها محفل (الاتحاد الإفريقي) بوهران، إلا أننا لا نعلم عدد المنخرطين في الماسونية من الجزائريين في الجهة الغربية، ولم يستبعد سعد الله دخول بعض العائلات الحضرية والدينية والتعليمية الماسونية عن وعي أو عن غير وعي، وذكر أن مدرسة تلمسان الشرعية كانت إحدى البؤر للحركة الماسونية، خاصة في عهد ألفريد بيل[4]. وأما ((بشير بلاح)) فقد نص أن مجموعة من الجزائريين انخرطوا عن قناعة أو تحت إغراء السلطة والنفوذ في المحافل الماسونية، منهم ((الحاج حمو)) صاحب فكرة (الجزائر إلى الأبد فرنسية)، و((عمر بوضربة))، و((ابن تامي)) اللذين كانا عضوين في (رابطة حقوق الإنسان)[5].

4. تراجع اللغة العربية:

حارب الاحتلال الفرنسي اللغة العربية منذ الوهلة الأولى لدخوله أرض الجزائر حيث اعتبرها لغة أجنبية وضيق عليها ومنع تعليمها في المدارس والتعامل بها في الإدارات، بل تعد الأمر حدود المعقول إلى درجة أنه إذا أراد شخص أن يكتب رسالة إلى صديقه وجعل العنوان باللغة العربية رميت في سلة المهملات كما نص على ذلك ((الفضيل الورتيلاني))[6]، وأصبح فتح مدرسة لتدريس العربية والعلوم الإسلامية في نظر الفرنسين أثناء فترة الاحتلال بمثابة فتح مصنع لإنتاج الأسلحة والذخيرة، ولربما

---

[1] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص419.

[2] نفسه، ص417.

[3] نفسه، ص420.

[4] نفسه، ص241.

[5] بشير بلاح، المرجع السابق، ص80.

[6] الفضيل الورتيلاني، **الجزائر الثائرة**، دار الهدى ، الجزائر، 2009، ص97.

حكم على من فتح مدرسة عربية بالسجن مدى الحياة مع الأعمال الشاقة. ووجود سبورة في منزل جزائري جريمة نكراء يعاقب صاحبها بالسجن والغرامة، لأن ذلك يؤدي إلى انتشار الوعي الفكري والوطني، وهذا يشكل خطرا على الاستعمار. ومن لا يحسن التحدث باللغة الفرنسية ضاعت مصالحه في الإدارة أسابيع وشهورا وربما أعواما، كل ذلك إمعانا في إذلال الجزائريين وثقافتهم ولغتهم القومية العربية[1].

أصيبت العربية بوهن وضعف شديد وذلك بسبب محاربة الإدارة الفرنسية لها وطغيان الطابع الفرنسي على أكثر مناحي الحياة، فأصبحت العرائض مثلا تحرر باللغة الفرنسية في مطلع القرن العشرين بينما كانت في السابق تحرر باللغة العربية، وكذلك أصبح بعض الجزائريين يخاطبون الجماهير باللغة الفرنسية، ومن أولئك ((ميصالي الحاج)) فرغم أنه كان يجيد العربية الدارجة إلا أنه كان يفضل الخطابة بالفرنسية[2].

وحتى العامية التي أراد الفرنسيون إحلالها مكان العربية الفصحى أصبح الجزائريون يخشون من زوالها وتحولها إلى لغة فرنسية منطوقة بلهجة عامية، وإلى هذا أشار أحد كتاب جريدة (البصائر) حيث يقول: << وزاد الطين بلة ما فشا بين أكثر الطبقات من خلط الكلام العربي بالعجمي في الموضوع الواحد في البساط الواحد، فنجم عن ذلك خليط لا هو بعربي ولا عجمي ... لئن كان منكم من جيل بينه وبين الفصحى فلا أقل من أن ينال حظه من اللغة العربية الدارجة، فإن الرطانة التي تفشى أمرها في عموم القطر وتشوهت بها الألسن أيما تشويه وتركتنا خائفين على لغتنا العامية كذلك ذلك الخيال الباقي من العربية[3]>>. كانت اللغة العامية من أقرب اللهجات إلى العربية الفصيحة ولو أضيفت لها علامات الإعراب لصارت من قبيل الفصيح إلا أنها مع مرور الوقت فسدت بالفعل ووقع المحذور، لاسيما في المدن الكبرى، وبعض الناس يمزجون كلامهم بمفردات فرنسية فيقولون مثلا "ترانبيت" عوض "غلطت" و"ترانجيت" عوض "اتفقت" وغير ذلك ليس بالقليل[4]. وكانت عامية الجزائر العاصمة أكثر فسادا، وتليها مدينة قسنطينة، وظلت لهجة تبسة حتى العشرينات لم تتلوث بعد. وأما أفلو فقد بقيت عربيتها فصيحة صافية. يقول ((مالك بن نبي)): <<كانت تبسة على علمي المدينة الوحيدة التي يتكلم

---

[1] يحيى بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية: 1830-1954، ص62-63.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص117.

[3] أبو العباس أحمد بن الهاشمي، "بعد غربة اللغة العربية أصبحنا نخشى على اللغة الدارجة"، **جريدة البصائر**، م1، ع8، 21 فيفري 1936، ص1.

[4] نور الدين عبد القادر، **صفحات من تاريخ الجزائر**، دار الحضارة، الجزائر، 2006، ص245.

الناس فيها لغة لا تزعم لنفسها بيانا أدبيا ولكن كانت أصيلة في المفردات وصافية في اللهجة[1]>>. أما أفلو التي لم يكن المعمرون وصلوا إليها فكانوا يتكلمون بلسان عربي لا ريب أنهم لا يأخذون فيه الحالات النحوية بعين الاعتبار، ولكن كانت حسب ((ابن نبي)) الأصفى في سائر أنحاء الجزائر[2].

وصف ((أبو اليقظان)) حال اللغة العربية في الجزائر سنة 1927 متسائلا عن حظها من أبناء المسلمين فذكر أن حظها منهم عاثر وحالها بينهم حال غريب في داره، ومن يمشي في الشوارع ويدخل المحلات لاسيما في العاصمة ويرتاد المجتمعات والنوادي والمحتفلات والمقاهي ويصغي لما يتخاطب به الناس يسمع رطانة غريبة وخليطا من اللغة لا هو عربي ولا بربري ولا فرنسي وإنما هو مزيج من كل ذلك، والعربية أقل الثلاثة مع ما هي عليه من التكسر والاختزال. واستغرب ((أبو اليقظان)) ما كان يراه في حالة وقوع إشكال بين المتخاطبين الجزائريين بالعربية، فإذا التجؤوا إلى الفرنسية تفاهموا وزال الإشكال، وما يزيد الدهشة والاستغراب أنك ترى متصاحبين عربيين مسلمين يتخاطبان باللغة الفرنسية كلغتهما الأصلية نابذين لغتهما ولغة أجدادهما ظهريا، ظنا منهم ذلك من مقتضيات التمدن الحديث[3]. وهذا التراجع الرهيب للغة العربية فسح الباب على مصراعيه لانتشار اللسان الفرنسي، وأصبحت المدن الجزائرية وشوارعها، والمعالم الثقافية والحضارية في الجزائر تحمل أسماء أجنبية فرنسية لرموز قادة الغزو العسكري والفكري للجزائر من أمثال "بيجو" و"كلوزيل" و"لافيجري"، ولأعلام الفكر والأدب الفرنسي مثل "ديكارت" و"فيكتور هيجو" و"لامارتين" وغيرهم[4].

- **الخاتمة:**

لا بد في الأخير أن نعترف بصعوبة المواجهة التي دارت بين الاحتلال الفرنسي والشعب الجزائري خلال الفترة المدروسة وطيلة فترة الاحتلال، حيث اتسمت بصراع ثقافي طويل ومرير أنهك الطرفين. ولا يمكن القول أن الثقافة الجزائرية بقيت بعيدة عن تأثير ثقافة العدو؛ لأنها مع مرور الوقت أصابتها صدمة الاحتلال التي مافتئت تتطور شيئا فشيئا. صحيح أن فرنسا لم تنجح في بلوغ أهدافها المرسومة، لكن من جهة أخرى لم تستطع الجزائر المحافظة على كامل خصوصيتها الثقافية، فالواقع يدل على تضرر الثقافة الجزائرية، حيث أحدث المشروع الاستعماري الفرنسي جروحا عميقة تغلغلت في كيان المجتمع

---

[1] مالك بن نبي، مذكرات شاهد قرن، ص92.

[2] نفسه ، ص178.

[3] إبراهيم أبو اليقظان، "اللغة العربية غريبة في دارها"، **جريدة وادي ميزاب**، ع 55، 1927/11/3، ص ص78- 79.

[4] أحمد بن نعمان، **التعريب بين المبدأ والتطبيق**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986، ص156.

الجزائري، وتحولات خطيرة في مختلف المجالات الثقافية والفكرية والاجتماعية، خاصة في المدن والمناطق الأكثر احتكاكا بالمستعمر، وفي صفوف الطبقة المثقفة ثقافة فرنسية، بينما كانت القرى والأرياف أقل تأثرا. ورغم كل محاولات المقاومة والنهوض لم يسلم الواقع الاجتماعي والثقافي اللذين ضربا في الصميم بسبب السياسة الثقافية الفرنسية التي كانت ترمي لإبعاد الشعب الجزائري عن جذوره العربية الإسلامية بزرع عادات دخيلة ومظاهر الانحلال، بالإضافة إلى إيجاد نخبة غريبة عن المجتمع الجزائري رغم أنها تنتمي إليه. ويبقى المجال مفتوحا لمزيد من الدراسات عن هذا الموضوع، خاصة وأن كثيرا من المشكلات الثقافية التي ظهرت بعد الاستقلال ترجع جذورها إلى المرحلة التي خصصناها بالدراسة.

قائمة المراجع:

1- أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي ،ط1، بيروت، 1996.

2- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت ، 1998.

3- أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،ط2، الجزائر، 1983.

4- أحمد بن نعمان، **التعريب بين المبدأ والتطبيق**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986.

5- أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

6- أحمد مريوش، **الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية**، دار هومه، الجزائر،2007.

7- أحمد الخطيب، **جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985.

8- إحسان حقي، **الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد**، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر،ط1، بيروت، 1961.

9- بشير بلاح، **مواقف الحركة الإصلاحية الجزائرية من الثقافة الفرنسية**، عالم المعرفة، الجزائر، 2013.

10- وليام شالر، **مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر**، تعريب: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

11- حمدان خوجة، **المرآة**، ت: محمد العربي زبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005.

12- حسين مؤنس، **الحضارة**، عالم المعرفة، الكويت، 1978.

13- يحي بوعزيز، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية:1830-1954**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

14- محمد أسد، **الإسلام عل مفترق الطرق**، ت: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

15- محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، دار صادر، بيروت ، د.ت.

16- محمد البشير الابراهيمي، **الآثار**، جمع وتقديم نجله: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997.

17- محمد البشير الإبراهيمي، **سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين السنوي الخامس**، دار الكتب، الجزائر، 1982.

18- محمد سليم قلالة، **التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد**، دار الفكر، دمشق، 1988.

19- محمد خير الدين، **مذكرات**، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985.

20- محمد الطاهر وعلي، **التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1914 (دراسة تاريخية تحليلية)**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009.

21- محمد مهداوي، **الإبراهيمي نضاله أدبه**، دار الفكر، ط1، دمشق، 1988.

22- محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2013.

23- مسعود بن الشيخ سي بشير، **أوراق من الذاكرة**، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر 2011.

24- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ت: عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1986.

25- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، 2000.

26- مالك بن نبي، **مذكرات شاهد قرن**، دار الفكر، ط2، الجزائر، 1984.

27- ميصالي الحاج، **المذكرات(1898.1938)**، ترجمة محمد المعراجي، منشورات ANEP، الجزائر، 2006.

28- نور سلمان، **الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير**، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

39- نور الدين عبد القادر، **صفحات من تاريخ الجزائر**، دار الحضارة، الجزائر، 2006.

30- مصطفى الأشرف، **الجزائر الأمة والمجتمع**، ت: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

31- سعيد بورنان، **نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا، 1936-1956**، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013،

32- عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997.

33- فريد حاجي، **السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر المنطلق السيرورة المآل 1837.1937**، الدار الخلدونية، الجزائر، 2013.

34- الفضيل الورتيلاني، **الجزائر الثائرة**، دار الهدى، الجزائر، 2009.
35- صالح خرفي، **شعر المقاومة الجزائرية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.
36- شارل روبير أجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا**، دار الرئد للكتاب، الجزائر، 2007.

- المقالات:

1- إبراهيم أبو اليقظان،" اللغة العربية غريبة في دارها"، **جريدة وادي ميزاب**، ع 55، 1927/11/3.
2- أبو العباس أحمد بن الهاشمي، "بعد غربة اللغة العربية أصبحنا نخشى على اللغة الدارجة"، **جريدة البصائر**، م1، ع8، 21 فيفري .1936
3- أبويعلى الزواوي، "محاربة البغاء"، **جريدة البلاغ**، ع85، 14 سبتمبر 1928.
4- أحمد بن عزوز، "إنسانية الشيوعية بالجزائر...!"، **الشهاب**، م1، ع5، 10 ديسمبر 1925.
5- باعزيز بن عمر، "اللغة العربية في مؤتمر أنصار السلم"، **البصائر**، م2، ع80، 23 ماي 1949.
6- باعزيز بن عمر، "في مجتمعنا الجديد مشكلة اللباس" ، **البصائر**، م7، ع281، 30 جويلية 1954.
7- خليفة بن عمار، "هل لشبابنا حظ من العلوم والأخلاق الفاضلة"، **البصائر**، م1، ع3، 17جانفي 1936.
8- زهور ونيسي، "جوانب من مساهمة المرأة في صنع النصر"، **مجلة الأصالة**، ع 22، أكتوبر . نوفمبر.1974
9- زهور ونيسي، "المرأة الجزائرية والتمدن"، **البصائر**، م7، ع291، 29 أكتوبر1954 .
10- محمد الصالح رمضان، "دعوة جمعية العلماء ونهجهم الإصلاحي التربوي في عهد رئاسة ابن باديس لها"، **البصائر**، ع65، 1- 8 أكتوبر2001.
11- محمد الهادي الحسني، "ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم"، **جريدة الشعب** 29 ديسمبر 1983.
12- مصطفى بن شعبان، "نظرة في البدع"، **الشهاب**، م1، ع4، 3ديسمبر 1925.
13- مجهول، "لبس القبعة"، الشهاب، م2، ع38، 15جويلية 1926.

- الرسائل الجامعية:

1- أحمد بلعجال، الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد السعيد الزاهري، رسالة ماجيستير، إشراف: جمعي خمري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006.
2- جمال مخلوفي، السياسة الثقافية الاستعمارية في الجزائر خلال الفترة 1900. 1954، أطروحة لنيل شهادة دكتوراة علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أحمد بن بلة، وهران، 2018 . 2019.

. مواقع الأنترنت:

1- موقع https://www.trtarabi.com، عندما أجبرت فرنسا النساء المسلمات على خلع الحجاب اطلع عليه يوم 2022/07/14.